الإرادة مع القدرة سبيلا القيادة ومناط التكليف

المقال جيد كنص أدبي، وفيه معلومات لطيفة عن بعض جوانب التطور العسكري داخل حماس، ولكنه ممتليء بأغاليط تناقض مباديء الاستراتيجية، ومناط التكليف الشرعي المُميِّز بين المرء بنفسه والقادة، وحساب المسئولية السياسية والشعبية.

وتعلم أني شاعر، ولكن أدرك جيدا خطورة التعامل بهذه اللغة والروح في معرض النقاش الاستراتيجية والقيادي، كما تحسس الفقهاء قديما من لغة الوعظ والروحانية – مع ضروتها وحقانيتها في معرض التكليف، وليس هكذا لغة الأدب ، ولكن لكل مقام مقال.

الحقيقة قد يسوءني بشدة أن يتم نشر وتسويق هذا الكلام خصوصا في هذه المرحلة، وبالأخص في بين القادة والذين هم مكلفون أمام ربهم ثم شعوبهم بالتمحيص والتدقيق في ما سبق وحاصل وسيحصل.

وليس هذا سبيل رفع الروح المعنوية، واستعادة وبناء الشرعية القيادية والشعبية والسياسية.

أما الشباب المجاهد والذي استشهد في صولات الجهاد وأقبية الأنفاق بغزة، فهم أطهر ما في أمتنا، وهذا يزيد من حمل المسئولية على من يقود – وعلينا جميعا – وليس عذر لهم – ولا لنا - عن القيام بالواجب. (من ولي أمر عشرة، ثم لم يجتهد لهم وينصح لم ترح أنفه رائحة الجنة). ولمسالك التأهل الاستراتيجي والدور القيادي مسالك ليس منها للأسف هذا المقال وما يشاكله.

على كل، حقيقة مع انضغاطي الشديد إلا أني رأيت أن أكتب تعليقات مرتجلة قد يكون فيها بعض فائدة، وأعتذر مسبقا عن صراحتها فليس في المجال سبيل لمداراة أو تورية.

أولا) القدرة القتالية، ومن مفرداتها الفن العملياتي وجودة التكتيك وقوة الروح المعنوية، ليست بديلا عن جودة الاستراتيجية وبناء روافدها المعرفية والمؤسسية والتطبيقية؛ بل العكس – التميز في الأولى دون الثانية يقود لوضع أسوأ كثيرا من حال ضمورهما معا.

ثانيا) طبيعة الخبرة في المساحة العسكرية والعملياتية تختلف كمضمون وطرق بناء عن المساحة الاستراتيجية؛ فالأولى التجريب الميداني أهم طرقها وإن كان كما أشار نابليون الذي أحال عليه المقال، له مُكمِّل من الانفتاح على التاريخ العسكري قديما وحديثا ونقده، وإلا ضاع التمييز بين الثابت والمتغير وقيمة التسييق، ولأن التجريب لن يستوفي كل مظاهر الخيارات العسكرية وأنماطها ولا نصفها أو عشرها، فخبرة الحرب محدودة بأنماط وسياقات بعينها دون غيرها. وكما الفقيه لا يترقى عن مستوى التقليد إلا بالتعرف على الأدلة الكلية واختلاف الفقهاء أصولا وفروعا، والتمحيص والتمييز بين الفروق ومعرفة

الأشباه والنظائر - فكذا الخبرة العسكرية.
أما الاستراتيجية فميدانها – كمعرفة – هو عقلي بالأساس، وروافده التحليل النقدي للتاريخ والواقع، والإلمام الموضوعي والمُدقق للبيئات الاستراتيجية عند الخصوم والذات والمحيط – في مساحات الاجتماع والسياسة والشعب والاقتصاد وطبيعة اتخاذ القرار وصولا للمساحات العسكرية.
وبمجرد أن يقول شخص أن العبرة بتجربة الميدان، في معرض الحديث عن الاستراتيجية، فهو لا يفهمها، وليست له. الخبرة العسكرية (المخصوصة وليست على إطلاقها) تفيد بشكل هام في تطوير الملكة الاستراتيجية، لأنها ميدان تنزيلها عمليا في أهم القطاعات، ولكنها ليست كافية فضلا أن تكون بديلة عن روافد معرفية (وتجريبية) أوسع وأهم.

ثالثا) كتطبيق لما سبق .. (ما الذي فات العملية من حسابات؟ فاجأكم الدخول المحدود للمحور؟ حجم الرد الإسرائيلي؟ الاصطفاف العالمي مع إسرائيل؟ عدم قيمة الرهائن عند إسرائيل؟". سألته وأنا لم أنتهِ من تعداد كل ما يمكن أن يقال عن الحسابات" نابليون قديماً اعتبر أن الخطة التي نجاحها يصل لـ60% هي خطة قابلة للتنفيذ، ويضيف: "يضطر المرء في الأعمال الكبيرة لأن يترك بعض الأمور للصدفة"،

هذه أمور ليست أصلا من قبيل المتروكات للصدفة! لأنها من البديهات المحسومة كمآل لتلك العملية ومن ضرورات فهم الاستراتيجية في هكذا صراع وطبيعة البيئات الإقليمية والدولية، وبمجرد القول أنها تُترك للصدفة فضلا عن غياب التصور الصحيح بشأنها فهذا كذلك يقدح في مدى التأهل السياسي والاستراتيجي لصاحب هذا القول.
ثم حساب مدى نجاعة والوثوق بالخطة – بغض النظر عن مدى نسبة لنابليون ومدى حجيته في تلك المساحة الاستراتيجية وهو أكبر خاسر بها، لا تُقاس بمجرد الكتلة العددية ولكن القيمة. كما كان يقول أستاذي (It could be barely enough to do the BIG things better) ، وأخطر شيء لابد من تصحيحه وتدقيقه بأي استراتيجية هو الأهداف السياسية والفرضية الاستراتيجية الأساسية والتي تخص الجدوي والتأثير.
ونعم، أي خطة عسكرية قد لا تصمد أمام أول أيام الحرب – كما قال مولتكة الأكبر – Any War Plan does not sustain the first pullet/third of war، ولكن الأمر بالاستراتيجية مختلف. لأنها فرضيات كلية حاكمة، ونعم ستتغير ولكن ليس بهذا الشكل اللحظي.
ولهذا فالعبرة ليس بشكل أولي بالخطة، ولكن بالملكة القيادية علما وقدرة وذوقا وتحفزا – سواء في المساحة العسكرية أو الاستراتيجية ، وبينهما فروق جلية.

رابعا) البنادق لا تصنع المعارك، ولا تقود المسارات.. ولأستاذي كتاب جيد Weapons Don’t Make war. نعم – فضلا عن قيمة التجريب التي تحدثتُ عنها دون مبالغة، فهناك أنماط في الاستراتيجية تقوم على مبدأ الاستطلاع دون بالضرورة وجود تصميم متقن مسبق، ولهذا قال مولتكة الأكبر – Strategy is a system of expeditions، ولكن هذا مع من نضج مبناه الاستراتيجي، وكذلك لابد من وجود فرضيات واضحة في الأسئلة الكبرى، مع استعداد ومرونة عالية لبناء

التفريعات في السلوك الاستراتيجي مع الوقت.
على المستوى العملياتي هناك تمايز بين نمطين، بين النهج العملياتي المرن – ويتبعه الإسرائيلي تاريخيا والذي لبراعته وقدرة قياداته في هذا السياق لا يرتكز على تصاميم مفصلة وحتى منطق قيادته ينبني على المهام Mission Command وليس التصاميم، وبين المسلك الذي اختاره الشاذلي في حرب أكتوبر – وكذا أركان صدام في آخر سني حرب الخليج الأولى، أي التصميم الكامل لدفقات عملياتية صغرى، إدراكا منهم بضعف القابلية العملياتية العربية في حروب المناورة لأسباب عديدة. لم يناطحوا الصخر، ولكن واءموا مقتضى البنية الذاتية والبيئة فأنجزوا.
وحتى هذا النهج المبادر الذي تخلقه الفرص وسير المعركة له محدوديات عديدة ليس مقام تفصيلها - حتى عند من يتقنه كالألماني، فما حكاه لودندروف في أواخر الحرب الأولى حين رد معترضا على ما طالبه بذكر تصوره عن العمليات – I don't do operations: we will make a pinch and then everything will follow، هذا نفس منطق أخينا بالمقال، وبالطبع النتيجة معلومة في الحربين العالميتين.
على أن مستوى الاستراتيجية أعقد كثيرا من هذا، وفي ذات الوقت هناك ضرورة فيه لتحديد الوجهات والخيارات الكبرى وقياسها مبدئيا، ولأن الخسائر أكثر فداحة ولا يمكن تعويضها وليس كما في مستوى العمليات بالحرب.,

خامسا) الأخ الكريم الذي يقول أن الخير بين الموت مفعولا به أو مبادرا - أقر بأنها معركة فاقدة للهدف غير الإثخان ؟! فكيف له أن يحكي عن جدوى بالأساس؟!
و حديثه عموما طابعه سجالي وليس تحليلي وعلمي، لأنه يستعين بدفوعات من طبعها التناقض بغرض الإفحام، وليس بمنطق واحد مطرد. فهل لا قيمة للجدوى، أم هناك جدوى ولكن متأخرة، أم أنه اختيار شر الشرين في تغاض عن مسارات عديدة بينهما، أم لا قيمة لقول من تغيب عنه خبرة ميدانية، أم أنه متابعة لمنهج حركي سابق في إدارة الصراع؟

سادسا)، وضع الخيار بين الاستسلام وبين التحرك العسكري دون اعتبار الجدوى وحجم الخسارة السياسية والشعبية فضلا عن الحركة ومواردها العسكرية، ليس فقط خطأ في فهم ظاهرة الحرب وخيارات الاستراتيجية، ولكن أخلاقي ونفسي، لأنه تقويل للناس غير ما تقول إلا أن يقف عارض الجهل عذرا.
هناك مسارات استراتيجية كانت ممكنة؛ بالأخص بدءا من سيف القدس وما أحدثته من تصحيح للعوار الاستراتيجي القائم عند حماس منذ 2007 ولكن للأسف لم تكتمل مساراتها، وحتى بعد 7 أكتوبر كانت هناك خيارات ضاقت للأسف الشديد بمرور الوقت دون مراجعة وتصحيح.

سادسا) منطق الفناء في الحق والاقتران بالشهادة دون مراعاة الجدوى والمآل والمراجعة والتصحيح - هو حظ الفرد من التخيير وليس القائد!، وحتى هو في ذلك ليس مطلوقا . فالإمام الحسين، لم تتشرف أمتنا بعد النبي بطهارة وقداسة قضيته، ولكن مع ذلك، قد ينص النظر الاستراتيجي والمُكنة القيادية على عوار شديد في حركته، وقد قال بهذا كثير من الصحابة؛ فلا

يحق له أن يقذف بنفسه في سبيل هذا، ولهذا لما علم الأمر بتمامه، قال ردوني أرجع. ولكن حين استحال الأمر منطق إيمان وشرف وإقرار بظالم وقتها جاز له سبيل التهلكة الشريفة. ولفقهه عليه السلام، فهم أن هذا مناطه الشخصي حين استبان الواقع والمآل لكل من معه، فقال: أحللتكم من بيعتي، ومن يريد الفراق فليفعل، ففعل جلهم إلا سبعون بقوا في هذا الموطن باعتبار فدائيتهم الشخصية والشهادة عنه وبجواره.

والجهاد ولو دخل ضمن تكييف (جهاد العين والدفع)، إذا تجاوز الحد العيني والموضوعي في (إنْ جاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أخْذَ مالِي؟ قالَ: فلا تُعْطِهِ مالَكَ قالَ: أرَأَيْتَ إنْ قاتَلَنِي؟ قالَ: قاتِلْهُ قالَ: أرَأَيْتَ إنْ قَتَلَنِي؟ قالَ: فأنْتَ شَهِيدٌ، قالَ: أرَأَيْتَ إنْ قَتَلْتُهُ؟ قالَ: هو في النَّارِ) إلى حشد الجيوش ووضع الخطط، لزمه اعتبار الجدوى والتخير في الموازنات والمصالح لأنه إنفاق لمقدرات الأمة شعوبا وموارد وسلاحا في سبيل قد يكون هناك الأجدى والأحفظ.

وأختم، أن حماس – بكل ما قدم أبناءها وشبابها وقياداتها من موطن فخر وشرف وفداء، هي سطر في تاريخ أمتنا، سبقته آلاف الأسطر – كذلك ممن لا يقلون فدائية وروحانية سواء حازا على رشد استراتيجي وقيادي أو لم يحوزوا، انتصروا بمعيار الدنيا ومنتوج الحرب أو انهزموا - وستليها أخرى.

فليس اعتراضاتي وغيري ممن فقط يشغلهم هم أمتنا (لا نحكي عن متصهينين أو معادين فكريا أو سياسيا) عن جوانب مدققة في مسارها الاستراتيجي أو القيادي بآخذ منهم شرفا أخرويا أو دنيويا! ولا هو كذلك تحصينا لها عن النقد والتدقيق والمساءلة ! ولئن جاز في حق النبي قولته (أمنزل أنزلكه الله – أم هي الرأي والحرب والمكيدة) لاشتباه مقام التشريع والوحي مع مقام الإمامة والسياسة، فهذه الشبهة مرتفعة أصلا في حق كل من جاء بعده!

بل أهم أعراض الاستطالة والاستبداد، أن يستطيل المرء بصلاح قدمه عن واجب المسائلة خصوصا لو تصدر وقاد (لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها)، هذا للأمير مع رعيته، فما بالنا بواجب الاحتساب والنصح المفتوح لكل الأمة عامتها وخاصتها، وبالأخص في معرض الأزمات والكوارث التي قضى فيها آلاف البشر وتهاوت مسارات ومحطات.

وكل منا عليه واجب يجتهد في تحقيقه، ومناط تكليفي على قدر ما ابتلاه الله من أدوات (لا يكلف الله نفسا إلا مآ أتاها) ، وأتاه من طاقة – (إلا وسعها)،

وإنها خيانة في حق صاحب علم أن يكتمه خصوصا في وقت الحاجة إليه، وليس هو حين يقدمه يقطع بالضرورة بصوابه إلا في مقام القطع الشرعي أو الطبيعي. وكذا تقصير كبير في حق من يقود أن يستنكف عن قبول النصيحة بل وطلبها – خصوصا إذا تحققت الحاجة وغلب ظن الانتفاع.